خريطة أوليّة للثورة التونسيّة

□ ياسر منيف

قبل شهرين أُجبر بن عليّ على مغادرة تونس، وسارعتْ وسائلُ الإعلام الغربيّة إلى مقارنة الثورة التونسيّة بالثورات الأوروبيّة. ونظرًا إلى عدم وجود سوابق، فقد لجأ بعضُ المثقفين إلى وصف الانتفاضة التونسيّة بأنّها من نتاج الثورة الفرنسيّة.(١) بيْد أنّ هذه المقارنة ليست مضلِّلة فحسب، وإنّما أوروبيّة التوجّه أيضًا: فهي تفترض أنّ الثورة التونسيّة مطابقة للنموذج الأوروبيّ من الثورات، مع فارقٍ زمنيٍّ يقارب القرنين.

ولكنْ إذا كانت هذه المقارنة بعيدةً عن الواقع، فكيف يسعنا أن نقارب الثورة التونسيّة؟ أقترح أن يتمّ ذلك من خلال ثلاثة أبعاد: اجتماعيّ ـ ثقافيّ، واجتماعيّ ـ اقتصاديّ، وجيوسياسيّ، بدلاً من مقاربتها وحدةً متجانسةً. إلا أنّ مقاربتي لا تعني أنّ هذه الأبعاد مستقلٌّ واحدها عن الآخر بشكل تامّ. غير أنّ كلّ حلقة تمثل واقعًا اجتماعيًا قائمًا بذاته؛ فبمقدور الثورة مثلاً أن تنجح على الصعيد الثقافيّ ـ الاجتماعيّ بغضّ النظر عن نتائج الثورة الاقتصاديّة الاجتماعيّة

الثورة الثقافيّة ـ الاجتماعيّة

أحدثت الثورةُ التونسيّة تغيّراتٍ جذريّةً في المجال الثقافيّ، إذ يبدو أنّ نظريّة الخوف وثقافة العنف اللتين قام عليهما هذا المجتمعُ الاستبداديّ قد تصدّعتا اليوم. وكانت الحكومة قد استخدمتْ أشرسَ أساليب التعذيب والترهيب، وأغرقت الفضاءَ العامَّ بصورِ رموز النظام، من أجل إبعاد المواطن عن مجرّد التفكير في دخول ذلك الفضاء خوفًا من المخاطر التي قد تواجهه. ومع ذلك ظهر عددٌ من حالات المقاومة والتصدّي على مدار العقود الماضية.

واليوم أثبت المتظاهرون أنه لا يمكن أيَّ نظام قائم على سياسة التخويف والترهيب الاستمرارُ إلى ما لا نهاية. إنّ الحراك الديمقراطيّ هذا هو بمثابة ولادة جديدة للكثير من المتظاهرين، ساعدهم على تجاوز ثقافة الخوف المتأصّلة في داخلهم، وعلى تعلّم لغة جديدة اسمُها الحريّة. أحدُ الأفلام التي يتمّ تداولُها عبر الإنترنت يصوّر شخصًا يجاهر بأعلى صوت متحدّيًا حظرَ التجوّل: «يا شعب تونس، لقد أصبحتم أحرارًا الآن. يحيا شعب تونس! تخلّصتم من بن عليّ المجرم. لا تخافوا بعد اليوم وارفعوا رؤوسكم...»(٢) هذا الحدث يُظهر أنّ هروب بن عليّ بدّل الخيالَ الشعبيّ بشكل جذريّ، إذ اكتشف التونسيّون هشاشةَ النظام القائم على الترهيب وتأليه الفرد. ووفقًا لهذا المبدإ، فإنّ كلّ مواطن يوالي الحاكمَ ويصدّق «شعارات النظام البالية وأفعاله الفارغة»(٣)؛ لكنْ حين تهتزّ العلاقةُ بين الحاكم والمواطن ينهار النظامُ بشكل كامل.

فحين أطلق الناسُ العنانَ لرغبتهم في التغيير، وأطلقوا حناجرَهم في شوارع تونس، وواجهوا الدبّاباتِ بصدورهم العارية، غدت هذه البطولاتُ الفرديّةُ بمثابة الشرارة التي حوّلت الأحداثَ المتفرّقة إلى ثورةٍ على صعيد الوطن ككلّ. وخلال أسابيع قليلة استطاع المتظاهرون إزاحة ثلاثة وعشرين عامًا من القهر. وبذلك أصبحت الثورةُ التونسيّة، التي فجأت الحزبَ الحاكم، أحدَ أسوإ الكوابيس التي تقضّ مضاجعَ الحكّام العرب. ولم تمتلك القوى المعاديةُ للثورة في تونس القوة اللازمة أو الوقتَ الكافي لإنقاذ نظام بن عليّ.

بعد فرار بن عليّ، حاولت الحكومة التونسيّة الحاليّة بقيادة محمد الغنوشي إحياءَ النظام القديم، مع صعوبة ما تتطلّبه هذه المهمّة. ولتحقيق ذلك قد تلجأ الحكومة إلى الأساليب البوليسيّة والأمنيّة المعهودة، بالإضافة إلى محاولة تجنيد طبقة جديدة من المثقفين التقليديين للعمل إلى جانبها. وفي هذا الإطار قد ينشأ بعضُ التوتر بين طبقة رجال المال المسيطرين على الاقتصاد، والجيش، إلا أنّ الطرفين سيحاولان الوصول الى توافقٍ ما للحفاظ على السلطة. كما أنّ الطبقة الحاكمة ستسعى إلى خلق تحالفاتٍ جديدةٍ مع بعض عناصر المعارضة التونسيّة لتدعيم هيمنتها على السلطة. ولعلّ التحدّي الأكبر بالنسبة إلى العناصر اليساريّة والراديكاليّة، في المرحلة الراهنة، هو الوقوف في وجه

١ ـ Jean Tulard, "The Year 1789 of the Tunisian Revolution: Interview with Jean Tulard, Historian of the French Revolution by Benoît Vitkine," **Monthlyreview.org**. Jan 22, 2011. http://mrzine.monthlyreview.org/2011/vitkine220111.html

٢ ـ "A Tunisian celebrating freedom [SUBTITLE]." **Youtube.com**. Feb 9, 2011. http://www.youtube.com/watch?v=B8v42UkDB9Y

٣ ـ Lisa Wedeen, **Ambiguities of Domination: Politics, Rhetoric, and Symbols in Contemporary Syria** (Chicago: The University of Chicago Press, 1999), p. 152.

لا يمكن أيّ نظام قائم على سياسة التخويف والترهيب الاستمرارُ إلى ما لا نهاية

محاولات خلق فرقة في صفوفها، والتصدّي لعمليّة الجذب والاستدراج التي قد يتعرّض لها كوادرُها من قبل الطبقة الحاكمة

الثورة الاجتماعيّة ـ الاقتصاديّة

البعد الثاني للثورة التونسيّة هو البعد الاجتماعيّ ـ الاقتصاديّ فعلى امتداد عقدين من الزمن، أدّت السياساتُ الاقتصاديّة الليبراليّة القسريّة التي قادها الحزبُ الحاكمُ إلى إقصاء جزءٍ كبيرٍ من الفئات الاجتماعيّة. وقد أسهم ذلك إسهامًا أساسيًا في إلغاء الطبقة الوسطى، التي كانت تلعب دورَ الطبقة العازلة المانعة للصدام في حال الأزمات بين الطبقة الحاكمة والطبقات المهمّشة، فتعمّقت الفجوةُ بين الأغنياء والفقراء. بمعنًى آخر، تمكّن بن عليّ من خلال السياسات الاقتصاديّة التي انتهجها من إقامة تحالفاتٍ بين طبقاتٍ متناقضةٍ داخل صفوف المعارضة؛ كما أحاط نفسه بطبقةٍ من البرجوازيّة التجاريّة الغنيّة، وبنظام بيروقراطيّ عديم الكفاءة؛ بالاضافة إلى فرض قبضةٍ حديديّةٍ مدعومةٍ من نظام بوليسيّ أمنيّ.

إذا عدنا قليلاً إلى الوراء تبيّن لنا أنّ تاريخ تونس الحديث قائم أساسًا على ظهور النظام النيوليبراليّ الذي نراه اليوم. فبعد الاستقلال عام ١٩٥٦، قام الحبيب بورقيبه بتبنّي برامج إصلاحيّة برجوازيّة تتمثّل في إقامة اقتصاد قائم على تحقيق النموّ اعتمادًا على الصادرات واحلال الواردات. وعلى مرّ السنين حاولت الطبقاتُ العاملة مواجهةَ هذه السياسات المجحفة، وتعمّقت الفجوةُ بين هذه الطبقات وأصحاب رؤوس الأموال[١] حتى بلغتْ ذروتَها سنة ١٩٧٨ خلال الإضراب العامّ الذي قاده الاتحادُ العامّ للشغل، والذي تصدّى له الجيشُ وأسفر عن عدد كبير من الضحايا.[٢]

في الثمانينيّات والتسعينيّات، قامت الحكومة بخصخصة التعاونيّات الزراعيّة التي تملكها، فأدّى ذلك إلى إلحاق الضرر بصغار المزارعين لمصلحة كبار الملاّك ونتيجةً لهذه السياسات انطلقتْ عدةُ انتفاضات جوع في الثمانينيّات، فاضطرّت الحكومة إلى تخفيض أسعار بعض السلع. في العام ١٩٨٦ قامت الحكومة بإعادة هيكلة الاقتصاد عن طريق الخصخصة، وتخفيض النفقات الحكوميّة وكلفة العمالة، دافعةً الطبقاتِ العاملةَ إلى المواجهة. وفي هذا الإطار برز دورُ بن عليّ في التصدّي لهذه التحرّكات لمنعها من الوقوف في وجه سياسته النيوليبراليّة. لكنه لجأ إلى الخداع من خلال اعتماد خطاب «إصلاحيّ

١ ـ Richard Seymour. "The Rise and Fall of Ben Ali," **socialistworker.org**. Jan 18, 2011. http://socialistworker.org/2011/01/18/rise-and-fall-of-ben-ali

٢ ـ Clive Bradley, "Tunisia: Behind the "Jasmine Revolution"," **workersliberty.org**. Jan 22, 2011. http://www.workersliberty.org/story/2011/01/22/tunisia-background-and-prospects

ديمقراطيّ» لتمرير سياساته وتدعيم سلطته: ففي بداية التسعينيّات، شجّع العمل النقابيّ، إلا أنّه في الوقت ذاته قاد حملة مسعورة ضدّ الشيوعيين والإسلاميين على حدٍّ سواء. بيْد أنه في السنوات التي تلت أقرّ سياساتٍ أكثرَ عدائيّةً ووحشيّةً أدّت الى تقويض نظامه وزيادة نقمة الطبقات الغاضبة.[1]

في النهاية لا يمكن فصلُ الثورة التونسيّة عن الأزمة الاقتصاديّة العالميّة التي بدأتْ عام ٢٠٠٧. فبسبب هذه الأزمة دفعت الطبقاتُ الشعبيّة، من عمّال وفلاحين، وقطاعاتٌ كبيرةٌ من الطبقة المتعلمة، الثمنَ الأكبر. على صعيد آخر، لا يبدو أنّ هذه الأزمة ستتعمّق بسبب السقوط المدوّي لبن عليّ؛ فقد تقوم تحالفاتٌ جديدةٌ بين بقايا العهد البائد والطبقة البرجوازيّة وبعض الجماعات الإسلاميّة مثل حركة النهضة وجزء من النخبة المثقفة لحلّ أزمة الشرعيّة التي تواجهها الطبقةُ الحاكمة وقد تلجأ هذه الطبقة إلى تقديم عدد من التنازلات لجماعات مهمّشة.

وفي السياق نفسه، فإنّ بعض الجماعات الثانويّة ستحاول إعادة تنظيم صفوفها وخلق تحالفات جديدة. وقد تضطرّ بعضُ قطاعات الطبقة العاملة (من عاملين وعاطلين عن العمل) وبعض الحركات الاجتماعيّة إلى إعادة تقييم مواقعها ودراسة الواقع الحاليّ، في محاولة لتبيان مواطن ضعف التحالف النيوليبراليّ الجديد من أجل التصدّي له ومنعه من تدمير الثورة.

ثورة جيوسياسيّة

أخيرًا يمكن تحليلُ الثورة التونسيّة على المستوى الجيوسياسيّ فتونس في ظل بن عليّ بلد مستقلّ من الناحية النظريّة فقط، لا من الناحية الجيوسياسيّة (وقد لا تكون البلد الوحيد على هذا الصعيد). فعلى الصعيد الخارجيّ، شكّلتْ تونس قاعدة للسياسة الإمبرياليّة الأمريكيّة في المنطقة بدعمها حربين أمريكيتين مدمّرتين ضدّ العراق. كما أسهمتْ في دعم السياسة الإسرائيلية ضدّ الفلسطينيين. أما على الصعيد الداخليّ، فقد قامت الحكومة التونسيّة بقمع المظاهرات المندّدة بغزو العراق وحصار غزّة. وقام بن عليّ بإعادة صياغة بعض نظريّات المحافظين الجدد، كمحاربة الإرهاب، واستخدامها ضدّ معارضيه. والمأمول أن تتمكّن الانتفاضة التونسيّة (والمصريّة) من وضع حدّ للزحف الاستعماريّ الجديد

آمهرست (ماساتشوستس)

ياسر منيف

طالب دكتوراه في علم الاجتماع، جامعة ماساتشوستس، آمهرست

١ ـ Christopher Alexander, "Authoritarianism and Civil Society in Tunisia," merip.org. MER 205. Oct - Dec 1997. http://www.merip.org/mer/mer205/alex.htm